

الوحدة: فلسفة الأنوار (الفصل الرابع) - 2 -

1 - المحور الثاني: المفاهيم والأفكار الأساسية لفلسفة الأنوار

1 - 1 - مفهوم الأنوار

1 - 1 - 1 - صعوبة تعريف الأنوار

اختلف الفلاسفة والمفكرون عموماً في إعطاء تعريف محدد لمفهوم الأنوار، وللمرحلة التاريخية التي ساد فيها؛ وما يزكي هذا الاختلاف هو تعدد المفردات في اللغات الأوروبية المختلفة للإحالة عليه. فلا يتعلق الأمر بمفهوم نحت في لغة معينة، ثم ترجم حرفياً بعدها للغات الأخرى، وإنما كل لغة تقريباً أعطت له تعريفاً محدداً، حيث نجد Lumières في الفرنسية، Aufklärung في الألمانية، و Enlightenment في الإنجليزية، و Illuminismo في الإيطالية. وما يزيد من صعوبة التعريف عموماً، هو أن بعض التعريفات أعلاه، لا تشير إلى عملية مكتملة، وإنما إلى عملية تدريب وتعلم لم تكتمل، وهذا ما تبناه لاحقاً بعض الفلاسفة المعاصرين (هابرماس مثلاً).

لكن صعوبة إعطاء تعريف جامع مانع لمفهوم الأنوار، لن يمنعنا من محاولة معرفة على الأقل الملامح العامة لهذا العصر الذي سمي بعصر الأنوار، والوقوف عند أبرز مميزات فكره، وأوجه اختلافها عن الفكر الذي كان سائداً من قبل.

إن أبرز مميزات هذا الفكر والمرحلة التي غطاها هو العقل، أي الاعتماد على العقل والعقلانية في كل مناحي الحياة. يقول كوندورسيه وهو من أبرز فلاسفة الأنوار: "سوف يأتي اليوم الذي تشرق فيه الشمس على الرجال الأحرار فقط، أولئك الذين لا سيد لهم سوى عقلهم." وسيادة العقل، تعني استخدامه في النقد لإعادة النظر في كل الأشكال المعرفية السابقة، من قبل الخرافة، والدين، واللاتسامح، وغيرها من القوالب الجامدة التي ميزت

العصور الوسطى؛ وأيضاً اعتماده في التنظير لمؤسسات سياسية واجتماعية ودينية بديلة عن المؤسسات التقليدية (الكنيسة، والسلطة المطلقة...).

انخرط في هاته الحركة الفكرية فلاسفة، وعلماء، وأدباء، بل وحتى بعض رجال الدين المتنورين. كل من موقعه بهدف التأسيس للعقلانية وتقويض الفكر اللاهوتي القديم. وقد استعمل هنا لفظ الأنوار لكي يجمع تحت طياته مختلف هاته التيارات الفكرية التي تسترشد بنور العقل وحده.

تم اقتباس صور النور هاته من التقليد الذي كان سائداً في أوروبا، والمتمثل في وضع شمعة في النافذة ليلاً للإعلان عن حدث أو إيصال رسالة للجيران، فيقوم البيت المجاور أيضاً بشعل شمعة، ومن نافذة لأخرى حتى يعم الضوء وينجلي الظلام. أعجب الفلاسفة بهذا الإجراء وجعلوا من انتشار المعلومات والمعرفة عموماً، عملية للتنوير قصد تحويل ليل الجهل والظلامية (Obscurantisme) إلى نور العقل، نور العلم والمعرفة.

لم ينبثق التنوير في أوروبا دفعة واحدة، ولكن التفاوت الاقتصادي والاجتماعي وأيضاً التفاوت في التطور السياسي بين مختلف الأقطار، أدى إلى التفاوت في عملية التنوير. ما جعل الظاهرة تبرز هنا وتخفت هناك، أو تنتقل من قطر إلى آخر، مثلما ينتقل مفكرو هذا القطر إلى قطر آخر أكثر تحرراً لكي ينشروا أفكارهم وكتبهم. الأمر الذي عكس صورة غير متجانسة عن التنوير. و عوض الحديث عن تنوير واحد، أصبحنا نتحدث عن أشكال من التنوير، بل وأكثر من هذا، توسيع مجال التنوير ليشمل بلدانا خارج أوروبا مثل أمريكا.

لم يحصل الاختلاف فقط حول مفهوم التنوير، وإنما حصل أيضاً حول المرحلة التاريخية التي ساد فيها. أي حول ما إذا كان الأمر يتعلق بالقرن الثامن عشر فقط، أم أن الأمر يتجاوز هذا التحديد وينفتح على مرحلة أقصر أو أطول، وبذلك فضل بعض الفلاسفة والمؤرخين كل حسب رؤيته، كرونولوجياً أكثر أو أقل اتساعاً من القرن الثامن عشر. هناك

من يرى بأن الأنوار تبدأ من الثورة المجيدة في إنجلترا سنة 1688م، لتنتهي بالثورة الفرنسية. والبعض الآخر من علماء التاريخ الفرنسيين يحددون بداية الأنوار بنهاية حكم لويس الرابع عشر (1643م – 1715م)، حيث كانت هذه المرحلة بمثابة الحمل، ليبدأ عصر الأنوار رسمياً سنة 1715م بموت هذا الملك، لتكون الفترة الممتدة ما بين 1789م و1815م بمثابة الخاتمة لهذا العصر.

عكس هذا، يتفق بعض فلاسفة القرن الثامن عشر مع بعض الفلاسفة المعاصرين على أن التنوير لم ينتهي بانتهاء القرن الثامن عشر، وإنما هو مشروع لازال جديراً بأن يتبع ويستكمل، مادام جوهره يتمثل في تحرير الأفراد من التصنيفات الجامدة، حتى يستطيعوا أن يكونوا قادرين على الفعل، بوصفهم بشراً يرتبطون بالبشر الآخرين، من خلال السعي المشترك نحو القيم العالمية مثل الحرية، والعدل، والموضوعية. ضداً على التوقع حول الشخصية القومية المؤسسة على العرق، والدين، واللغة، والتي كانت السبب في كوارث القرن العشرين (هابرماس).

نفس الرأي يتبناه ميشيل فوكو الذي أخذ هو أيضاً بتصوير كانط وتعريفه للتنوير، باعتباره مشروعاً لم يكتمل، مستعملاً مقالاته الشهيرة كنقطة بداية لفهم جديد للاستعمال النقدي للعقل كوسيلة للتغيير. ومادامت هذه المقالة تشكل أساس تعريف الأنوار في القرن الثامن عشر، ونقطة الارتكاز عند القائلين باستكمال مشروع التنوير في المرحلة المعاصرة، قصد مزيد من التغيير والعقلنة، فلا بأس أن نقف عندها بشكل دقيق ومفصل.

1 - 2 - تعريف كانط للأنوار

يعرف كانط التنوير باعتباره خروج الإنسان من حالة القصور التي يبقى هو المسؤول عنها، والمتمثلة في العجز عن استخدام العقل بمعزل عن قيادة الآخرين. والعلة

هنا ليست غياب العقل، وإنما فقدان الشجاعة على استخدامه. وبذلك يبقى شعار عصر التنوير هو: تشجع على استخدام عقلك بنفسك !

إذا كان الأمر هكذا، فما الذي يمنع الناس من استخدام عقولهم دون مساعدة الآخرين؟

إنه ببساطة الخمول والجبن. فقد اعتاد الناس على وجود من يخلصهم (القائد، رجل الدين، الطبيب...) من مهمة التفكير التي يعتبرونها مهمة خطيرة ومرهقة. ومن طبيعة الحال أن من يكرس هذا الخوف من استخدام العقل، هم هؤلاء الأوصياء (الذين يقبضون الثمن)، حتى تسهل عملية ضبط القطعان واستدامة السيطرة عليهم، من خلال التهويل من الخطر الذي سيعترض كل من تجرأ على استعمال عقله.

لكن هل من السهل التجرؤ على استخدام العقل؟ بعبارة أخرى، هل استخدام العقل من دون توجيه الآخرين عملية سهلة؟

لا مناص من التعثر لكل من أراد تعلم السير، رغم أن البعض يتوجس من هذه التعثرات الضرورية لأي تعلم. فيستكين إلى القصور الذي أصبح يحبه ويرتاح إليه، بل ويعتبره حالة طبيعية. وهذا بالضبط ما تكرسه المؤسسات والصيغ الجامدة التي غدت عوائق أمام طريق استخدام العقل. ومن ثم لم يوفق إلا القليل في تجاوز حالة القصور بالاعتماد على المجهود الفردي فقط.

ويبقى التنوير الجماهيري ممكن وأسهل، بل بالأحرى محتم، إذا توفر شرط الحرية. في هذه الحالة سيبرز حتى من بين الأوصياء أنفسهم، أشخاص وبعد تخلصهم من القصور، سينشرون التنوير (روح التفكير العقلي بالاعتماد على النفس)، ولو أن الجمهور سيعترض في الأول على هذه الخطوة بتحريض من الأوصياء الآخرين العاجزين عن التنوير. إلا أن العملية (التنوير) تتطلب الكثير من التآني، من خلال التركيز على إصلاح نمط التفكير وليس التخلص من الأشخاص المتسلطين، لأن هؤلاء يمكن أن يعوضوا بآخرين أكثر تسلطاً.

لكن إذا كانت الحرية هي الشرط الأساسي لأي تنوير، فأبي نوع من الحرية يتمشى والتنوير الجماهيري؟

يجيب كانط بوضوح: إنها حرية الاستعمال العمومي للعقل في كل الميادين. وهذا الاستعمال وحده الذي يمكن أن يؤدي إلى تنوير الناس. أما الاستعمال الخصوصي فيمكن تقييده بصرامة دون أن يعيق عملية التنوير.

فما معنى كل من الاستعمالين العمومي والخصوصي للعقل؟

الاستعمال العمومي للعقل هو ذلك الاستعمال الذي يقوم به شخص ما بصفته رجل فكر، أي باعتباره شخصا يخاطب جمهورا من القراء. أما الاستعمال الخصوصي فذلك الذي يمكن أن يقوم به المرء بصفته متقلدا لمنصب مدني، أو وظيفة مدنية ما. ففي هذه الحالة على الفرد أن يطيع ويطبق الإجراءات الرسمية بسلبية، أي دون إخضاعها لحرية التفكير. لكن بعد ذلك وباعتباره عضوا في جماعة، فيحق له التفكير فيها باعتماده فهمه الخاص، مادامت لن تتعطل تلك الشؤون التي يعتبر مسؤولا عنها. وقد أعطانا كانط أمثلة من هذا القبيل (الضابط، رجل الدين/ المدرس).

إذا كان الأمر هكذا بالنسبة للأشخاص بخصوص الاستعمال العمومي للعقل، فما الأمر بالنسبة لمجموعة من الأشخاص (هيئة رجال الدين)، أيقق لهذه الهيئة مثلا القسم على الالتزام بعدم تغيير رمز لفترة طويلة، ومن ثم فرض وصاية دائمة على الأعضاء الآخرين وباقي أفراد الشعب؟

يجيب كانط هنا بالرفض القاطع، لأن مثل هذا التعاقد سيمنع حق الجنس البشري في الاستمرار في تنوير نفسه، وسيكون بمثابة عائق أمام الأجيال اللاحقة في أن توسع معارفها وتتخلص من أخطائها. وبخلاصة، فذلك يعتبر جنائية في حق الطبيعة البشرية، وعائق أمام التقدم في التنوير. وحتى وإن تم هذا فإن للخلف كل الحق في أن يرفض تلك القرارات ويعتبرها غير مشروعة؛ لأن ما يمكن أن يكون صالحا في زمن، لن يكون كذلك في زمن

آخر. وبالتالي فمن غير المشروع بتاتا الاتفاق ولو خلال مدة حياة إنسان واحد فقط، على نظام ديني ثابت لا يمكن الشك فيه عموما. لأن ذلك يعتبر من الحقوق المقدسة للإنسانية. إذا كان الأمر هكذا بالنسبة للمجمع الديني أو الهيئة الدينية، فماذا بخصوص رأس السلطة السياسية (الملك)، أيقظ له فرض عقيدة دينية ما أو الانحياز إلى طائفة بعينها؟

يجيب هنا أيضا كانط بالرفض، فعلى الملك التركيز فقط على إصلاح النظام المدني وترك أمور الخلاص للأشخاص أنفسهم. فأمور الخلاص ليس من مهامه، أما مهامه تجاه هذه الأمور فتتخصص في الحؤول دون أن يستعمل شخص أو مجموعة أشخاص العنف لمنع شخص آخر من العمل لغاية خلاص نفسه؛ بالإضافة إلى ذلك، على الملك ألا يدعم رأيا دينيا ما، وإن حدث وفعل فسيرتد عليه ذلك لا محالة.

في ظل كل هذه المعطيات المرتبطة بالتنوير، هل كان القرن الثامن عشر قرنا متنورا؟ السؤال بالصيغة التي وضعها كانط في تلك الفترة، هل نعيش في عصر متنور؟

الجواب: لا، ولكن نعيش في عصر للتنوير. لأنه في الوضعية الراهنة ينقص الكثير لكي يستخدم الناس فهمهم الخاص بصورة آمنة وجيدة، دون قيادة الغير في الأمور الدينية. لكن المجال مفتوح أما تحقيق ذلك، مادام أن عوائق التنوير العام أو الخروج من القصور العائد إلى الذات، تناقص تدريجيا. والمثال على هذا التفاؤل الكانطي هو الملك المتنور فريدريك العظيم الذي اعتبر أن من واجبه عدم الأمر في الأمور الدينية، تاركا الحرية في ذلك للناس. وبذلك أصبح من حق رجال الدين - كرجال فكر - أن يعبروا بحرية عن آرائهم التي تخالف الرمز الرسمي، دون أن ينعكس ذلك بشكل سيء على واجباتهم تجاه وظائفهم. وهذا دليل دامغ على أنه لا خوف على الأمن العام من الحرية. والأكثر من هذا، فإن هذا الملك المتنور سمح للرعايا باستخدام العقل حتى في التشريع، قصد نقد التشريع القائم واقتراح الأفضل، من منطلق الفكرة القائلة: "فكروا قدر ما تشاؤون وفي ما تشاؤون، لكن أطيعوا." وبذلك يؤثر التفكير الحر تدريجيا على خلق الشعب، ليصبح شيئا فشيئا أهلا

للحرية، الأمر الذي يؤثر بدوره على مبادئ الحكومة التي تجد بدورها أنه من المفيد أن تعامل الإنسان، بما يتلاءم مع كرامته.

انتهت المقالة بالإشارة إلى أن التركيز على الأمور الدينية في بحث حلول عصر التنوير، له ما يبرره. لأنه لا مصلحة للحكام على ما يبدو، بأن يقوموا بدور الأوصياء في ما يخص الفنون والعلوم. ولأن حالة القصور في الأمور الدينية هي الأكثر ضرراً والأدهى خزيًا حسب كائط.

وبذلك طلبتي الأعزاء، سنركز في اللقاء المقبل على علاقة الدين بالتنوير، وبالخصوص مفهوم التسامح الذي جعل منه فلاسفة التنوير في القرن الثامن عشر، المخرج الأمثل من الصراعات الدينية والطائفية. ولذا عليكم أن تقرأوا جيدا كتاب "رسالة في التسامح" لجون لوك.

متمنياتي بالصحة والعافية